مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 11- العدد 2 (مارس) 1442هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

النخبة الليبرالية الإندماجية
وموقفها من مسألة الهوية الوطنية الجزائرية.

The amalgamating liberal elite and its positions on the issue of algerian national identity

اسم ولقب المؤلف المرسل: صفصاف هواري- Safsaf Houari صص493- 514
الدرجة والعنوان المهني: طالب دكتوراه ل.م.د وعضو في مختبر تاريخ الجزائر- جامعة وهران1 أحمد بن بلة- الجزائر/البريد الإلكتروني: Safsaf.houari@edu.univ-oran1.dz
اسم ولقب المؤلف الثاني: صافر فتيحة - Safer Fatiha
الدرجة والعنوان المهني: أستاذة في التاريخ الحديث والمعاصر - جامعة وهران1 أحمد بن بلة- الجزائر/البريد الإلكتروني: safer10@hotmail.fr

تاريخ استقبال المقال: 2021/03/10 تاريخ المراجعة: 2021/04/04 تاريخ القبول: 2021/05/10

الملخص: مثلت الهوية منطلقا أساسيا في سياسة الإستعمار الفرنسي في الجزائر؛ من خلال محاولة طمس معالمها وركائزها التي تُبنى عليها خاصة الإسلام والعروبة، والعمل على نشر ثقافته وأفكاره وسط الجزائريين. وقد خاض لأجل ذلك معارك متعددة وعلى عدة أصعدة من تقتيل وتهجير وفرنسة وتنصير . وعلى هذا الأساس فقد جاءت دراستنا هذه في محاولة لمعرفة ردود ومواقف أحد أهم التيارات السياسية التي ظهرت في الجزائر، وهو ما اصطلح عليه "التيار الليبرالي" في توجهه الداعي إلى الإندماج التام في المجتمع الفرنسي، وقد جاء اختيارنا لهذه التيار كونه تلقى تكوينا فرنسيا وتأثر بثقافتها ومبادئها الثورية (1789)، الداعية إلى الحرية والمساواة والأخوة؛ مما جعل مواقفه تختلف عن بقية التيارات السياسية الجزائرية اتجاه مسألة الهوية الوطنية للجزائريين. ومن هذا المنطلق فإن عملنا هذا ينطلق من إشكالية تهدف إلى معرفة موقف النخبة الليبرالية الإندماجية من قضايا الهوية الوطنية الجزائرية إبان الفترة الإستعمارية. وسنحاول أن نجيب عنها من خلال التطرق للعوامل التي ساهمت في ظهور هذه النخبة وأثر ذلك على مواقفها، كما سنتطرق إلى أهم ما ميّزها عن باقي التيارات السياسية الناشطة على الساحة السياسية، ونتناول موقفها من مسائل الهوية الوطنية الجزائرية خاصة الإسلام والعروبة، بعدها نتطرق لمصير

ومآل هذا التيار، وذلك موازاة مع التحولات التي عرفتها الجزائر في نضالها ضد الإستعمار خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وبداية ظهور ملامح الكفاح المسلح الذي قضى على سياسة فرنسا الإندماجية في الجزائر بعد اندلاع الثورة التحريرية المجيدة.

الكلمات المفتاحية: التيار الليبرالي؛ الإندماج التام؛ الهوية الوطنية الجزائرية؛ موقف النخبة الليبرالية الإندماجية؛ مصير النخبة الليبرالية الإندماجية.

Abstract : Identity represented a focal point in the French colonial policy appliedin Algeria. The colonial policy strove to remove the pillars of this identity in terms of Islam and Arabism .Besides, in their campaignsforspreading their culture and ideas among Algerian people, the colonists fought many battles in which they killed , exiled and evangelized Algerians. Through this research paper, we try to know about the reactions and attitudes of one of the most important political trend which emergedin Algeria , known as liberalism . " This latter called for an Algerian integration in the French society. We have selected the trend of "liberalism" because its pioneers had a French training , and they were influenced by the French culture and revolution's principles (1789) , calling for freedom, equality and brotherhood. In fact, these features makeits stances different from the other political trends in Algeria, especially towards the issues of national identity. Our research paperstarts with enquiring about the attitude and the opinion of the integratedliberal elite's from the national identity issues during the colonial period. We'll tryto answer the problematicthrough dealing with the factors that contributed to the emergenceof this elite and the effects of its opinions. Besides , this paper will further tackle the options that make Liberalism different from the other trends in the political sphere, and we'll investigate its attitude from the Algerian national identity, especially islam and arabism .Finally, we'll move tackle the destiny of this trend during the transitions that Algeria has witnessed in its struggle against colonialism after the Second World War and the burst of the armed struggle which eliminated the integration of the French policy in Algeria , after the outbreak of the Algerian glorious revolution.

Keywords : liberal current; Perfectintegration; Algerian National identity; integratedliberal elite's attitude; integratedliberal elite's destiny.

المقدمة : يعتبر موضوع الهوية الوطنية من المواضيع الحساسة خلال الفترة الإستعمارية للجزائر، والذي أثار جدلا ونقاشا بين النخب الجزائرية عامة والنخبة الليبرالية الإندماجية على وجه الخصوص، هذه الأخيرة وضعت نفسها في موقف حرج وسط مجتمعها الذي رفض التخلي عن مقوماته من تاريخ وديانة وعادات وغيرها،كما كان لمواقفها ردود أفعال

من طرف النخب الإصلاحية ممثلة في العلماء ورجال الدين الذين وقفوا في وجه السياسة الإستعمارية الرامية إلى محاولة طمس ركائز هوية الشعب الجزائري من دين ولغة وتاريخ، واستبدالها بهوية المستعمر الفرنسي؛ الذي كان يهدف إلى نشر ثقافته وأفكاره وسط المجتمع الجزائري.

الإشكالية: لا تزال العديد من التساؤلات التي يطرحها الباحثون والمختصون عن تاريخ النخب الجزائرية خلال فترة الإستعمار الفرنسي، حول مواقفها من مسألة الهوية الوطنية؛ خاصة النخبة الجزائرية المنفتحة على الحضارة الغربية، والتي تخرجت من المدارس والجامعات الفرنسية؛ فما هي العوامل التي أدت إلى ظهور النخبة الليبرالية الداعية للإندماج التام في المجتمع الفرنسي؟ ولماذا سميت بالنخبة الليبرالية؟ وما الذي ميّزها عن باقي النخب الجزائرية؟ وما مصير هذه النخبة؟.

للإجابة على الإشكالية المطروحة تمحورت خطة عملنا حول العناصر التالية: عوامل ظهور النخبة الليبرالية الإندماجية- سبب تسميتها بالنخبة الليبرالية الإندماجية- أهم ما ميّزها عن باقي التيارات السياسية الأخرى- موقفها من مسألة الهوية الوطنية الجزائرية- مصير تيار النخبة الليبرالية الإندماجية.

أهداف الدراسة: تكمن أهداف دراستنا هذه في النقاط: التعرف على أحد أهم التيارات السياسية المكونة للحركة الوطنية الجزائرية خلال الفترة الإستعمارية- تبيان دور سياسة الإستعمار في إيجاد فئة من المجتمع الجزائري منفصلة عن مجتمعها ومتأثرة بفكره وثقافته وداعية إلى الإندماج في حضارته- تأثير الفكر الليبرالي الغربي والثقافة الفرنسية على مواقف التيار الليبرالي الإندماجي من قضايا الهوية الوطنية الجزائرية، معرفة مصير ومآل النخبة الليبرالية الإندماجية.

منهج الدراسة: اعتمدنا في دراستنا هذه على المنهج التاريخي الوصفي لملاءمته للموضوع من خلال سرد الأحداث والوقائع التاريخية للدراسة ووصفها، إضافة إلى المنهج التحليلي الذي ساعدنا في تحليل المادة التاريخية.

1- عوامل ظهور النخبة الليبرالية الإندماجية: عرفت الجزائر منذ بداية الإستعمار الفرنسي مقاومة شديدة قادها الشعب الجزائري عبر مختلف ربوع الوطن دفاعا عن أرضه وهويته؛ التي أصبحت تطمس من قبل سلطة الإستعمار، وقد دامت المقاومة المسلحة

للجزائريين ضد الغزاة من بداية الإحتلال إلى غاية الربع الأول من القرن العشرين، ثم تغير نمط النضال الجزائري ضد المحتل؛ حيث تحول من الريف إلى المدينة، ومن المسلح إلى السياسي، وفي هذه المرحلة ظهرت صورة النضال بأشكال مختلفة خاصة مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؛ عبر العرائض والنوادي والجمعيات الثقافية والصحافة وإرسال الوفود، وظهرت نخب من الشباب الجزائري أطلق عليهم المؤرخون فيما بعد تسمية "الشبان الجزائريون"[1]، ساهموا في بلورة النضال السياسي في الجزائر وتطوره.

وخلال النصف الأول من القرن العشرين ظهرت أحزاب وتيارات سياسية وفكرية، تقاسمت النضال السياسي ضد الإحتلال الفرنسي، ومن بينها النخبة الجزائرية ذات التوجه الليبرالي؛ التي كانت من أوائل التيارات الفكرية التي ظهرت في الجزائر إبان الفترة الإستعمارية. ظهرت هذه النخب الجديدة بعد فترة من الإحتلال الفرنسي وفقا للتغيرات التي طرأت على المجتمع الجزائري، كما كان للسياسة الفرنسية دورا أساسيا في ظهورها.

مَثّل التعليم خلال الفترة الإستعمارية حلقة هامة من حلقات الغزو الفكري الذي استهدف العقول والأفكار، عبر نشر أفكاره وثقافته الغربية القائمة على مبادئ الثورة الفرنسية الداعية إلى الديمقراطية والعلمانية وحقوق الإنسان والمساواة، في محاولة لإحلال الثقافة الفرنسية محل الثقافة العربية الإسلامية، وساهمت المدرسة الفرنسية القائمة على هذه الأفكار والمبادئ في تخريج فئة من المجتمع الجزائري، متأثرة بالفكر التغريبي، حتى تقوم بدور الوسيط الثقافي والسياسي بين السلطة الفرنسية في الجزائر والجزائريين المسلمين بحكم إتقانها للغة المحتل، وتأثرها بثقافته وقيمه، في محاولة لإخضاع الجزائريين وجعلهم يرضون بالإحتلال[2]، ويؤمنون بالتفوق العلمي والحضاري الذي جعل من فرنسا أمة لها القدرة والقوة على اختراق القلاع المحصنة[3].

حملت النخبة الجزائرية الجديدة على عاتقها مستقبلا مهمة نشر الثقافة الفرنسية تسهيلا لسياسة دمج المجتمع الجزائري في الأمة الفرنسية[4]. وهو ما يؤكده لنا تصريح المنظّر الفرنسي جورج آردي (George Hardy) في قوله: "إن أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية في مستعمراتنا، وجعلهم أكثر ولاء وإخلاصا لنا في خدمتهم لمشاريعنا، القيام بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة، وإتاحة الفرصة لهم لمعاشرتنا باستمرار، مما سيجعلهم يتأثرون بتقاليدنا وعاداتنا الفكرية، والمقصود هنا فتح المدارس لهم، حتى تتكيف فيها

عقولهم حسبما نريد"[5]، وفي نفس السياق صرح وزير الحربية الجنرال شرام (Schramm) بباريس يوم 06 جوان 1850 قائلا: "إن الظروف الحالية، وبعد حرب دامت سبعة عشرة (17) سنة أصبحت مواتية، ويتعين الآن على فرنسا للقيام برسالتها الحضارية إرساء قواعد التعليم الفرنسي في الجزائر"[6].

خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر مرّت السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر بأخطر مراحلها، نظرا للنتائج التي حققتها بظهور نخبة جزائرية مفرنسة متأثرة بالأفكار الليبرالية، وداعية إلى تطبيقها؛ ففي هذا السياق جاءت مدرسة جول فيري القائمة على التعليم اللائكي الغربي ببرامج مخصصة لأبناء الجزائريين؛ الرافضة لكل ما يتعلق بهويتهم من لغة وديانة وتقاليد وعادات[7]، ولنشر اللغة الفرنسية وتعليمها للجزائريين، والعمل على إدماج المجتمع الجزائري داخل البوتقة الفرنسية قصد تكوين نخبة موالية، أما فلسفة المدرسة الإسلامية- الفرنسية (الابتدائية) في الجزائر فقد قامت على أساس أن التعليم فيها هو نسخة من التعليم الفرنسي، والفارق الوحيد هو وجود اللغة العربية (الدارجة) في برنامجها[8].

إعتمدت المدرسة الفرنسية في تلقين علومها وثقافتها للناشئة الجزائرية على برامج ذات أهداف مسطرة ومحددة تدخل في إطار الغزو الفكر والثقافي، بغرض إيصال تراثها وحضارتها وتاريخها في قوالب مغرية لغرس فكرة التفوق الحضاري والعلمي للمحتل الفرنسي؛ الأمر الذي جعل تلك الأفكار تتغلغل في أذهان المتمدرسين الجزائريين؛ فأصبحت عبارة عن أبجديات وقناعات راسخة في عقولهم[9].

حملت برامج المدرسة الفرنسية في طياتها أهدافا استعمارية أبرزها قطع الروابط التاريخية التي تربط الجزائر بهويتها من تاريخ ولغة وثقافة وانتماء حضاري؛ وتعويضها بثقافة المستعمر، وحتى تنشأ أجيال من الجزائريين مقطوعة من جذورها وأصولها؛ مما يجعلها سهلة الإنقياد لسياسة الإستعمار؛ وما تؤدي إليه تلك السياسة من عواقب وخيمة على رموز هوية الجزائريين[10]، ولم يكن لتدريس أسس الهوية الوطنية الجزائرية نصيب في مناهج المدرسة الفرنسية، بالرغم من كونها خاصة بالمسلمين الجزائريين؛ فالتعليم فيها ليس عربيا ولا إسلاميا، وإنما كان فرنسي المناهج والتوجيه العام والأهداف، للقضاء على

اللغة العربية، وفرنسة الجزائريين لسانا وفكرا، تمهيدا لتنصيرهم عقيدة، وإدماجهم سياسيا في الكيان الفرنسي[11].

شكلت القبائل الكبرى أهم المناطق التي حظيت باهتمام السلطات الإستعمارية في مجال نشر التعليم الفرنسي فيها، بغرض فصلها عن إطارها العربي الإسلامي، وجعلها تابعة بشكل كامل لفرنسا، ويشير إلى هذا أحمد توفيق المدني في قوله: "وبلاد البربر المعروفة بجرجرة أو بلاد زواوة هي اليوم موضوع عناية كبرى من طرف الحكومة... التي جعلت التعليم الإفرنسي فيها إجباريا في كل قرية من قراها، ودشرة من مداشرها، بحيث أنك تجد اليوم ببلاد الجزائر 95 %من الأميين بين الصبيان، أما بلاد جرجرة فإنك لا تجد إلا 10% أو أقل من الأميين، ويكفيك بأن عدد الطلبة في مدارس الحكومة يبلغ نحو الثلاثين ألفا، وفي بقية البلاد الجزائرية عموما لا يوجد من الصبيان في المدارس إلا ثلاثين ألفا"[12]، وهو ما يوضح مدى انعكاس السياسة التعليمية الفرنسية في المنطقة؛ إذ ظهر فيها بعض الجزائريين الذين تأثروا بشكل كبير بثورة 1789 ومبادئ الفكر الليبرالي؛ فأيدوا الإستعمار، وتنكروا لهويتهم وعقيدتهم، وتجنسوا بجنسيته، وتعلموا لغته وطريقة عيشه، وكان أغلبهم ينتمي إلى فئة المعلمين الذين تخرجوا من مدرسة بوزريعة.

ومن جهة أخرى كان للمعلمين الفرنسيين تأثير واضح على تلاميذهم لنشر الثقافة الغربية بينهم، ولتحقيق ذلك عملت الإدارة الفرنسية في الجزائر على تدعيم دور المعلم وتشجيعه للإختلاط بالناس، وأن تكون علاقته بتلاميذه علاقة مباشرة، في محاولة منه للسيطرة على أفكار الجزائريين وقلوبهم، مما يجعلهم مؤيدين وموالين للإستعمار وثقافته؛ وما تعلق بها من لغة ودين وتقاليد"[13].

يمكن أن نظيف لهذه الأسباب، سببا آخر نراه مهما، ألا وهو دور الهجرة إلى فرنسا وعلاقتها بتشكل النخبة ذات التوجه الليبرالي في الجزائر؛ فقد هاجر إلى فرنسا بعض الجزائريين إما بحثا عن الأمن وكسبا للرزق نتيجة سياسة فرنسا الإستعمارية، أو من أجل طلب العلم، وإكمال الدراسة في الجامعات الفرنسية، وهناك من وجدوا أنفسهم بفرنسا بعد تجنيدهم في الجيش الفرنسي عقب صدور قانون تجنيد الجزائريين الإجباري.

أصبح هؤلاء المهاجرين الجزائريين؛ وبخاصة المثقفين منهم؛ على اتصال واحتكاك مباشر بالمجتمع الفرنسي وكذا الجنود الأجانب؛ فشاهدوا كيف تطبق القيم والمبادئ

الغربية كالمساواة والعدل والأخوة والتسامح داخل المجتمعات الأوروبية، وقارنوا ذلك مع ما يعيشه أبناء جلدتهم الذين حُرموا من أبسط الحقوق[14]، وكيف تنكّر الإستعمار الفرنسي للمبادئ والقيم الإنسانية المنتشرة في فرنسا، والتي كان يتغنى بها بعد احتلاله للجزائر، وأنه جاء لجلب الحضارة والرقي بالجزائريين إلى مصاف الأمم المتحضرة، وإخراجهم من حالة التخلف والإنحطاط.

كان لاتصال الجزائريين المباشر بالمجتمعات الغربية عامة؛ والمجتمع الفرنسي خاصة؛ الأثر الكبير عبر المشاهدة العينية للتطور العلمي للفرنسيين، وما يتمتعون به من حرية ومساواة، وما لهم من حقوق، كما كانوا من خلال الصحافة على تواصل مستمر بما يكتبه المفكرون الفرنسيون، الذين تأثروا بهم وبتوجهاتهم الفكرية والسياسية[15]، مما جعلهم يميزون بين فرنسا صاحبة المبادئ والقيم الثورية من مساواة وحرية وأخوة وديمقراطية، وبين فرنسا الإستعمارية التي تستغل شعبهم، وتطبق عليه سياسة زجرية قائمة على الظلم واللاعدل[16]، الأمر الذي جعل هذه النخبة ترفع هذه الشعارات الغربية خاصة الشعار الثلاثي للثورة الفرنسية في وجه سياسة المستعمر الفرنسي في الجزائر، وتدعو إلى تطبيقها، وأصبح هؤلاء المهاجرين بفرنسا يحاكون المجتمع الفرنسي في عاداته من ملبس ومأكل ومشرب، وتعرفوا على مختلف التيارات السياسية في جو من الحرية التي افتقدوها في الجزائر، وهذا ما جعلهم يتساءلون عن مفاهيم "الحرية والديمقراطية والشيوعية، وكذا حق الشعوب في تقرير مصيرها"[17].

وعلى هذا الأساس كانت شعارات الثورة الفرنسية منطلقا لنضال النخبة المثقفة المفرنسة، التي رفعتها في وجه السياسة الإستعمارية القائمة على التمايز العنصري بين الجزائريين والمستوطنين[18]، وقد تجلى ذلك في مطالبها ومواقفها وأفكارها التي طرحتها عبر مختلف منابرها الإعلامية كالصحافة والعرائض وغيرها.

2- سبب تسمية "النخبة الليبرالية الاندماجية": إن المتتبع لما جاء في المصادر والمراجع يجد أن هناك عدة أسباب جعلت المؤرخين يطلقون هذه التسمية على هذه الفئة من الجزائريين تحديدا، وهي تسمية جديدة في الساحة السياسية في الجزائر خلال الفترة الإستعمارية، وذلك راجع إلى المرجعيات الفكرية والثقافية التي نهلت منها هذه النخبة أفكارها وتوجهاتها السياسية، وسنورد بعض ما كُتب حول هذه النخبة من مواصفات

ومميزات جعلت المؤرخين والباحثين يطلقون هذه التسمية عليها؛ فهذا موريس فيوليت الذي كتب عنهم قائلا: "أحب هؤلاء الرجال الذين يحدوهم أن الثورة الفرنسية جعلت حق تعبير المرء عن رأيه حقا مقدسا"[19]، أما شارل روبير آجيرون فقد ذكر أن هذه النخبة كانت تتألف من المتطورين المتشبعين بالروح الفرنسية الذين تخرجوا من المدرسة الفرنسية، ويذكر أيضا أنها كانت ذات استلهام علماني وليبرالي تستند إلى العبقرية الفرنسية[20].

أما علي مرّاد فقد أطلق عليها صفة "التحديثية" بسبب تعلقها بالأفكار الفرنسية[21]، أما أبو القاسم سعد الله فيذكر أن النخبة الليبرالية كانت تعتقد في التعاون مع فرنسا، كما كانوا أيضا متحمسين للإندماج والثقافة الفرنسية[22].

وعلى هذا الأساس فإن تسمية النخبة الليبرالية جاءت من منطلق الأفكار التي آمنت ونادت بها؛ حتى وإن كان هناك الكثير من الروابط التي تجمعها بالنخب الأخرى؛ منها الأصل الإجتماعي، وهذا يكاد يتفق عليه معظم المؤرخين المهتمين بتاريخ النخب الجزائرية: إن أصل تسمية الليبرالية راجع بالأساس إلى طبيعة تكوينها الذي كان يمجد الثورة الفرنسية، ويشيد بمبادئها ومكانتها الإجتماعية ومواقفها، مما جعلها من دعاة الإندماج في الحضارة الفرنسية.

وبالنسبة لنا فإن ما نلاحظه من خلال ما جاء من تعاريف عن هذه الفئة لدى المؤرخين والباحثين؛ فإن تسمية "الليبرالية" التي اصطلحت عليها تعود بالأساس إلى تأثرها بالشعار الثلاثي للثورة الفرنسية من مساواة وحرية وأخوة، مما جعلها تنادي بتطبيق تلك الشعارات في الجزائر ليتمتع شعبهم بما يتمتع به الفرنسيون الذين طبّقوا تلك المبادئ منذ قيام الثورة الفرنسية، وذلك أن تطبيق تلك المبادئ يقضي على سياسة التمييز العنصري والظلم الإجتماعي التي تطبقها فرنسا الإستعمارية في الجزائر.

بدأت ملامح هذا التيار تظهر مع مطلع القرن العشرين، ومن أبرز أسماء هؤلاء نذكر العربي فخار ورابح زناتي، والمحامون: الطيب مرسلي، عبد النور تامزالي وبلقاسم بن التهامي[23]، إلى جانب الشريف بن حبيلس، الدكتور مرسلي، إسماعيل حامت، والقاسم المشترك بين عناصر هذه النخب يكمن في حالتها الشخصية؛ إذ أن أفراد هذه النخبة كانوا من المتخرجين من المدارس والجامعات الفرنسية، وأنهم كانوا من المتجنسين، وأنه كانت

لهم مكانة مرموقة في المجتمع بحكم وظائفهم من محامين ومعلمين وأطباء، إضافة إلى احتكاكهم الدائم بالمجتمع الكولونيالي.

تعتبر نهاية الحرب العالمية الأولى محطة هامة في تاريخ هذا التيار الليبرالي، بعد الإنقسام الذي عرفته حركة الشبان الجزائريين عقب إصلاحات 1919 حول مسألة التجنس وموقفها منه، وظهور تيارين: تيار تبني سياسة الإدماج، والحصول على المواطنة الفرنسية والمساواة والحقوق لكن دون التخلي عن مبادئه الإسلامية بقيادة الأمير خالد، أما طبيب العيون ابن التهامي فقد أيد التجنس القاضي بتخلي الجزائريين عن أحوالهم الشخصية.

وقد ظهر إلى جانب ابن التهامي شخصيات جديدة، منها رابح زناتي، سعيد فاسي، طاهرات، ليشاني، وغيرهم، وقد اجتمع هؤلاء داخل "جمعية المعلمين الجزائريين من أصول أهلية" (Association des Instituteurs d'origine indigènes). وقد تأسست بسبب سياسة التمييز العنصري المطبقة عليهم من طرف نقابة المعلمين الأوربيين، إلا أن تنظيم المعلمين هذا لم يكن ذا طابع سياسي، حيث كان يكتفي بالدفاع عن الحقوق الإجتماعية والمهنية للمعلمين الأهالي، والمطالبة بمساواتهم مع المعلمين الأوروبيين، وعدم التمييز بينهم[24].

إتخذت النخبة الليبرالية الداعية إلى الإندماج التام من جريدة "صوت المستضعفين" (la voix des humbles) (1922- 1939) منبرا للترويج لأفكارها وطروحاتها ومواقفها، وقد تلخّصت إديولوجيتها في ثلاث صيغ: "بعيدا عن الأحزاب، بعيدا عن العقائد، من أجل تطور السكان الأصليين، ودمج الأجناس في إطار السيادة الفرنسية"[25]. نقرأ في العدد الأول من صوت المستضعفين "إن الأهالي الخاضعين والمحترمين للسلطة الفرنسية لا يطلبون إلا العيش في سلام..."[26]. كما دعت أيضا إلى الإرتباط والتعاون بين المجتمعين الجزائري والفرنسي، والحفاظ على العلاقة بينهما لأجل حماية مصالحهما وأمنهما، إن التقارب بين الأجناس وانصهارها في رأينا العاملان الأساسيان لسلام البلد وازدهاره"[27].

أما الجريدة الثانية التي أسسها المعلمون الأهالي لطرح أفكارهم؛ فهي جريدة "صوت الأهالي" (La Voix des indigènes)، التي أسسها رابح زناتي بين 1929- 1942م، وكانت منبرا له لإبداء مواقفه وآرائه الداعية إلى التجنس، والدخول في الأمة الفرنسية، والأخذ بعلومها

وثقافتها، إضافة إلى جريدة M'tourni (المتجنس أو المرتد)[28]. إلى جانب تلك الجرائد أسس ابن التهامي جريدة "التقدم"، وهي جريدة نصف شهرية، وكانت تصدر باللغتين العربية والفرنسية، صدر العدد الأول منها في 25 ماي 1923 بالجزائر العاصمة، وفي سنة 1926 توقفت النسخة العربية منها، لتستمر النسخة الفرنسية إلى غاية 1931، ومن الذين كتبوا فيها: ابن التهامي وفرحات عباس وجون ميليا، إلى جانب وجود مقالات هامة موقعة بأسماء مستعارة مثل M.S , le petit indigène (الأهلي الصغير)، un jeune naturalisé (الشاب المتجنس)[29]. كما كتب ابن التهامي في جرائد أخرى مثل الدفاع (La défense) والعدالة (la justice)[30].

3- مميزات النخبة الليبرالية الإندماجية عن غيرها من النخب الجزائرية: نظرا لطبيعة التكوين الذي تلقاه أفراد هذه النخبة القائم على أسس ومبادئ الفكر الغربي، فقد اختلفت عن باقي التيارات الفكرية والسياسية الأخرى بما يلي:

- إيمانها بقيم الثورة الفرنسية مما جعلها تسعى إلى حمل الإدارة الفرنسية على تطبيق هذه المبادئ في الجزائر وعلى الجزائريين، من أجل قيام مجتمع جزائري متعدد الأديان والثقافات والأعراق؛ يتمتع فيه الجميع بالحرية، ويتساوون أما القانون دون فرق أو استثناء في العرق أو الدين.

- إنتماء معظم أفراد النخبة الليبرالية الإندماجية إلى منطقة القبائل، وذلك نتيجة السياسة التعليمية الفرنسية التي ركزت بشكل كبير على المنطقة بغرض إخراج فئة منسلخة عن دينها وهويتها، وجعل المنطقة تابعة لفرنسا.

- إختلفت معتقداتهم الدينية واتجاهاتهم الفكرية؛ فكان منهم الملحدون الذين تنكروا لدينهم، ومنهم من اقتصر في ممارسة واجباته الدينية على أبسط مظاهرها، وهناك من اعتنق الديانة المسيحية، وانخرط بعضهم في الأحزاب السياسية الفرنسية، ومنها الحزب الإشتراكي ورابطة حقوق الإنسان، كما انضم عدد منهم إلى الحركة الماسونية، إضافة إلى أنهم تشبعوا بالأفكار اللائكية، وآمنوا بالوجود الإستعماري على أنه وجود أبدي، معتبرين فرنسا وطنهم الأم[31]، ونجد منهم من اعتنق الديانة المسيحية، وانخرط في "الإتحاد الكاثوليكي الأهلي" (Union indigene Catholique)، الذي كانت له صحيفة ناطقة باسمه تسمى "المطورني"، وكان يشرف عليها القبائلي جوزيف زنتر[32].

- نظرا لطبيعة تكوينهم القائم على الثقافة الفرنسية، والوظائف التي امتهنها أغلبهم؛ فقد تميزت هذه النخبة عن غيرها من التيارات الفكرية والتوجهات السياسية الناشطة على الساحة الوطنية من حيث التعلم والتأثر بالثقافة الفرنسية، وبقيم ومبادئ الفكر الليبرالي.

- كانت من التيارات الفكرية الأشد تأثرا بالفكر الليبرالي والثورة الفرنسية، مما جعلها تدعو إلى الإندماج الكلي داخل المجتمع الفرنسي، وتبني عاداته وتقاليده وحتى دينه، ويعبر عن هذا مالك بن نبي في قوله: "... فأصبح هذا القبيل من المثقفين يبحث عن نجاته في التزيّ بالزيّ الغربي، وينتحل في أدواته وسلوكه كل ما يتسم بالطابع الغربي حتى ولو كان هذا الطابع ليس إلا مظهرا لا شيء وراءه من القيم الحضارية الغربية الحقيقية"[33].

- إعتبرت التجنس الوسيلة الوحيدة للخروج من الأوضاع المزرية التي يعيشها ذويهم، والدخول في المواطنة الفرنسية والتمتع بمزاياها؛ فدعت إلى الإندماج التام في الحضارة الفرنسية، وتبني قيم ومبادئ ثورتها القائمة على حرية الشعوب وحقوق الإنسان، أو كما جاء في العدد الأول من صحيفة صوت الأهلي الصادر في 13 جوان 1929 الداعي إلى الإسراع في فرنسة البلاد، وأعلنت مذهبها بكل صراحة قائلة: "إننا لا نخشى أن نقول الحقيقة الثابتة التالية: يجب أن تصبح الجزائر فرنسية"[34].

- إنتقدت هذه النخبة مجتمعها الذي تعيش فيه بحكم رفضه أخذ المواطنة الفرنسية والتخلي عن دينه، مما جعلها تعيش منعزلة عن المجتمع الجزائري الذي رفض التخلي عن أصالته، وكان لمواقفها الداعية إلى تبني النموذج الفرنسي رد فعل شديد اللهجة من رجال الإصلاح عليها، خاصة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي حكمت على من يقبل التخلي عن دينه بالردة، وأفتت بعدم دفنه في مقابر المسلمين.[35]

4 - موقفها من مسألة الهوية الوطنية: إنساق بعض أفراد النخبة الجزائرية وراء فكرة استبدال الهوية الجزائرية بالهوية الفرنسية، والأخذ بالنموذج الفرنسي والغربي بشكل عام، ودعت إلى الإندماج الكلي في المجتمع الفرنسي، وبذلك أصبح هذا التوجه يشكل تيارا ثقافيا واجتماعيا وسياسيا[36]، وكانت أغلب مواقف ومطالب هذا التيار تصب في سبيل تحقيق الذوبان داخل الهوية الفرنسية، والإندماج في المجتمع الفرنسي، والعيش وفق طريقته المخالفة لعادات وتقاليد مجتمعهم. وذلك لاعتقادهم أن الإندماج سبيل لحل المسألة الجزائرية، ومن أجل تحسين أوضاعهم، والتخلص من حالة البؤس التي كان يعيشها

مجتمعهم في ظل السيطرة الإستعمارية والقوانين الإستثنائية التي تطبق عليهم، وفي سبيل مساواتهم مع الفرنسيين للتمتع بحقوق المواطنة الفرنسية، إضافة إلى كونهم اعتبروا أن لهم الحق في اكتساب الجنسية الفرنسية، بحكم ثقافتهم ومستواهم العلمي الذي يسمح لهم بذلك.

تعتبر مسألة الهوية من المسائل الهامة التي شهدت صراعا كبيرا في الجزائر إبان فترة الإحتلال الفرنسي بين محتل أعمل كل ما لديه من وسائل بين غزو عسكري وغزو فكري، من أجل طمس مقومات الهوية الوطنية الجزائرية، وبين جزائريين صمدوا في وجه تلك السياسة التي كانت تصب في إتجاه القضاء على كل ما له صلة بشخصية الجزائري من لغة وانتماء ودين، وعلى هذا الأساس فقد أبدت النخبة الليبرالية الإندماجية مواقف مختلفة اتجاه أهم ركائز الهوية الوطنية، وبخاصة العروبة والإسلام.

إنّ مختلف المواقف الصادرة عن أنصار التيار الليبرالي الإندماجي الذي ينتمي أغلب أنصاره إلى منطقة القبائل، كانت تعارض الإسلام كونه يمثل أحد أسس شخصية الجزائريين المسلمين. وقد كانوا يروجون لأفكارهم عبر جريدة صوت المستضعفين التي كان شعارها: "بعيدون عن الأحزاب، بعيدون عن العقائد، في سبيل تطور الأهالي عن طريق الثقافة الفرنسية"[37]، إضافة إلى جريدة صوت الأهالي تحت شعار: "يجب أن تصبح الجزائر فرنسية"[38].

كما رأى أنصار هذا التوجه أن الإسلام يشكل عائقا أمام تقدمهم وانفتاحهم على الحضارة الغربية، مما جعلهم يدعون إلى إبعاد الدين عن الحياة العامة للمجتمع، لذلك حارب سعيد فاسي رجال الدين في مقاله "الجزائر تحت الرعاية الفرنسية ضد الإقطاعية الجزائرية"، حيث كان يرى أن رجال الدين يعرقلون الإندماج من خلال عملهم على تقوية الدين في نفوس المسلمين، وشبّههم برجال الكنيسة في أوروبا[39]، أما بلقاسم إبازيزن فقد أنكر عقيدته بشكل كلي فقال: "المسيحية هي المذهب الوحيد الذي يعطي الشباب القبائلي الكرامة لشخصيتهم..."[40]، وأكد ذلك بقوله: "ليس للشاب القبائلي آلهة ولا حضارة إسلامية ولا عبادة محمد"[41]، وفي هذا تنكر واضح لأسس ومبادئ الدين الإسلامي، والرغبة الكبيرة لعناصر هذا التيار في تبني الحضارة الغربية، والتعايش مع الإستعمار الفرنسي، إلى جانب إنكارهم للدور البارز للعلماء في نشر الدين وسط المجتمع كونه يمثل ركيزة هامة من ركائز

الهوية الوطنية، كما يلاحظ من خلال هذه المواقف مدى تأثير الفكر الفرنسي الذي نهلت منه عناصر النخبة الليبرالية مبادئ وأفكار مناقضة لحضارة المسلمين وديانتهم.

من جهة أخرى أبدى عناصر من هذا الإتجاه تخوفهم من الجامعة الإسلامية وصحوة الإسلام والخلافة الإسلامية التي أصبحت حسبهم تخيف الدول الإستعمارية، حيث كتب رابح زناتي قائلا: "لا يُنكَر أن صحوة الإسلام المتوسطي تعطي الأوروبيين العديد من المخاوف، المسألة الإسلامية أصبحت تخترق أكثر فأكثر الدبلوماسية، وتؤثر على العلاقات بين البلدان المتعطشة للتوسعات الإقليمية"[42]، وفي هذا تأكيد على تخوف الإندماجيين من توسع رقعة الإسلام، وكان تخوفهم ذلك كون أفكارهم الداعية للإنصهار في المجتمع الفرنسي تتعارض مع مبادئ الدين الإسلامي الذي يتميز بشرائعه وتنظيماته الشاملة لجميع مناحي الحياة، مما جعل المجتمع الجزائري المسلم يرفض دعواتهم تلك، ويبتعد عنهم.

كما كان لسياسة التجنيس الفرنسية في الجزائر دورا بارزا في إبراز مواقف الليبراليين الإندماجيين الذين تخلى أغلبهم عن مقومات التشريع الإسلامي، ورضوا بالجنسية الفرنسية، وما يلحقها من التخلي عن أحوالهم الشخصية المستمدة من الإسلام كالزواج والطلاق والمواريث، وأصبحوا يحتكمون إلى القوانين المدنية الفرنسية[43]، فآمنوا بالفرنسة داخل الوطن الفرنسي مع التخلي عن الإطار الإسلامي، والدخول كلية في المجتمع الفرنسي[44]. وقد صرح المدرس ابن الحاج أمام عدد من موظفي الإدارة الإستعمارية من رجال الدين قائلا :"إن الجزائريين فرنسيين سواء كانوا يتمتعون بالحقوق المدنية أم لا، وسواء كانوا متعلِّمين أم أمّيّين...؛ فدِيننا لا دخل له في جنسيتنا، ولا يمكن أن تكون سوى فرنسية"[45]. وصرح حسني لحمق في كتابه "رسائل جزائرية" أن "مبادئ الإسلام تتعارض تماما مع قوانين الحياة العصرية"[46]، إلا أننا لا نؤيد حسني لحمق فيما صرح به حول تعارض مبادئ الإسلام مع الحياة العصرية، ودليل هذا أن الإسلام يدعو إلى التعلم والعمل والإجتهاد، كما أنه ينبذ الكسل والبطالة، ويدعو إلى مواكبة التطور. وعليه فلا تعارض بين مبادئ الإسلام وتطورات العصر، وخير دليل على هذا ما شيّده المسلمون من حضارة وما وصلوا إليه من علوم حديثة، نهل منها الغرب وطوروا بها حضارتهم. إلا أن عدة أسباب ساهمت في تراجع الدور الريادي الذي وصل إليه المسلمون في مختلف مجالات العلوم

الحديثة، زيادة على هذا فإنه لا يوجد دليل على أن دين الإسلام عامل تخُلف؛ بل كان دائما عامل إشعاع حضاري، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن عناصر النخبة التي هاجمت الدين الإسلامي كانوا ممن اعتنقوا المسيحية، ودعوا إلى التخلي عن المبادئ الوطنية من دين ولغة، وقد شكلوا عناصر محدودة، أما بقية عناصر النخبة الإندماجية فقد كانت لها نظرة تختلف عن هؤلاء الذين تنكروا لدينهم، من خلال الدعوة إلى الحفاظ على مقوماتهم الدينية والحضارية، ومن هؤلاء فرحات عباس الذي طالب بالتجنس دون نكران خصوصية شخصيته الوطنية.

لم يُخف أفراد النخبة الليبرالية الإندماجية تأثرهم بالفكر العلماني، ومبدأ فصل الدين عن الدولة من خلال إعجابهم بتركيا الكمالية التي فصلت الدين عن الدولة، وقد جاء إعجابهم لتقاطع مطالبهم مع مبادئها العلمانية خاصة مبدأ التحرر من الدين وقيوده؛ فكانوا يستشهدون في كتاباتهم بكمال أتاتورك، والتغييرات التي قام بها، أو كما يقول حسني لحمق: "النخبة التي تتولى مقاليد الحكم في تركيا تدرك جيدا أنها إذا سمحت للدولة والمجتمع باتباع توجهات القرآن حرفيا، فإن بلادهم ستصبح مخربة بعد عشرين أو ثلاثين سنة"[47]. وقال أيضا في 1931: "الشباب العربي البربري ذا الإتجاه العلماني والمتشبع بقيم التقدم والنظام يحاول أن يكون متوافقا مع عصره، ويؤكد أن أحد الأسباب الرئيسية لانهيار الإمبراطورية العربية (كذا) هو غياب العقلية العلمانية التي كانت تحمل إلى الإسلام نفس التغييرات التي حدثت بالنسبة إلى الكاثوليكية في أوروبا"[48]؛ فقد أصبح الإسلام في نظر النخبة الإندماجية عاملا معرقلا أمام تطور الأهالي في إطار الحضارة الفرنسية، وتبني مبادئها وقيمها القائمة على اللائكية التي تفصل الكنيسة عن شؤون الدولة، وقد عبّروا عن اتجاههم اللائكي بقولهم: "إذا كان الأهلي الجزائري المسلم يحترم فرنسا، ويحترم فيها قوتها وطرق تفكيرها؛ فإنه في نفس الوقت لا يحبها، والسبب في ذلك هو وجود عائق بينهما هو الإسلام، ولتخطي هذا الحاجز رأوا في اللائكية الحل الوحيد، وطالبوا فرنسا بتطبيق هذه السياسة بحزم"[49]، مما جعل دعوتها تتمحور حول التحرر من تشريعات الدين وتوجهاته في المجتمعات المسلمة، وذلك لأن الدين الإسلامي دين يشمل جميع مناحي الحياة الدينية والدنيوية، هذا الأمر جعل عناصر هذا التيار ترى أن تطور

الدول الغربية كانت بسبب إبعاد الدين عن مناحي الحياة، وفي هذا دعوة لها لتقليد الدول المتحضرة واتباعها فيما قامت به لأجل تطوير المجتمعات المسلمة، ومنها المجتمع الجزائري الخاضع للسيطرة الإستعمارية.

ونتيجة لمواقف عناصر هذا التيار اتجاه الدين الإسلامي، فقد جعلت الجزائريين يعتبرونهم مرتدين عن الدين، بما في ذلك أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[50] الذين كانوا يعملون للحفاظ على مقومات هوية الشعب الجزائري، مما جعلها ترد على تصريحات أفراد التيار الداعي إلى الإنسلاخ من الدين الإسلامي، وتبني ديانة جديدة، وقد وجدوا أنفسهم كجماعة ملعونة من طرف العلماء الذين استعملوا ضدهم وبشكل صارم أحكاما دينية واجتماعية، إذ أن الذي يتجنس بالجنسية الفرنسية ويتخلى عن دينه، ويموت على ذلك فإنه لا يصلّى عليه ولا يُقرأ عليه القرآن، كما أصبحت فئات المجتمع تنفر من المتجنس نفورا كبيرا وتعتبره مرتدا[51]، وفي هذا المعنى صرح عبد الحميد بن باديس مؤكدا رفضه للتجنس الذي يؤدي بصاحبه إلى التخلي عن دينه قائلا :"إن الخمسة ملايين من المسلمين الجزائريين لا يقبلون بالتجنيس، ولا بأية حقوق تمنح لهم تحت شرط التجنس، إنهم يفضلون الموت فقراء، محرومين من كل شيء، لا يبصرون ولا يسمعون، على أن يعيشوا متخلين عن دينهم"[52]. كما يجب التنبيه في هذا المقام إلى حقيقة مفادها أن مواقف هذا التيار المخالفة لتصورات ذويهم جعلتهم يعيشون في عزلة بعيدين عن طموحات مجتمعهم الذي قاوم السياسة الإستعمارية الرامية لهدم أهم ركائز الهوية الجزائرية، وحول الوضعية التي آل إليها هؤلاء ما صرح به رابح زناتي في مقال له بعنوان "المتجنسون المساكين"، أبدى من خلاله الوضعية التي آل إليها أنصار هذا التيار قائلا: "قد ظنّ المُظِنّون بأن التجنس يُدخل المرء أصالة في العائلة الفرنسية، فضَحَّى الكثير من أجل ذلك بماضيهم وتقاليدهم ودينهم، وجعلوا أنفسهم عرضة لامتهان وازدراء بني جلدتهم، إلا أنهم بدل أن يصبحوا مقابل ذلك فرنسيين، أصبحوا طبقة ثالثة في البلاد، وأصبحت الجزائر تشمل طبقة الفرنسيين تليها طبقة المتجنسين وطبقة الأهالي"[53].

من جهة ثانية دعت النخبة الإندماجية إلى تعلم اللغة الفرنسية، حيث أصبح تعلمها لدى هذه النخبة أهم شيء؛ فهذا سيسمح للسكان الأصليين بالبقاء على اتصال مع روح فرنسا[54]، وفي هذا الإطار صرح أحد المتجنسين وهو سعيد لشاني قائلا: "يُسعدني أن أرى

اللغة العربية تختفي لتحل محلها الفرنسية في كل مكان حتى داخل الأسرة الجزائرية"[55]. وقد وصل الأمر ببعض أفرادها إلى الخجل من عَربيّتهم، وإنكار فضلها وقيمتها، وفي هذا يذكر الفرنسي غوتي تصريحا لأحد أعضاء النخبة الذي أخبر أحد زملائه في المجلس البلدي قائلا له: "إنني أشعر بالخجل من عربيتي، وذلك لما شابها من كلمات فرنسية دخيلة تسربت إلى ألسنة الجزائريين بسبب سيطرة اللغة الفرنسة على شؤون الإدارة والتعليم ووسائل الإعلام ومختلف النشاطات الثقافية، وأصبح الجزائري يتكلم هجينا"[56]، وإن دلّ هذا فإنما يدل على مدى انتشار لغة المحتل، وسيطرتها على مختلف المجالات والميادين، في مقابل انحسار اللغة العربية، مما أثر على لغة الحوار بين الجزائريين أنفسهم، الذين أصبح بعضهم وحسب هذا التصريح يتكلم هجينا.

هذا الأمر جعل رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يُسخّرون ما لديهم لإعادة إحياء مجد اللغة العربية، ونشرها بين الجزائريين الذين أصبحوا يجهلونها، وقد ظهر ذلك في بناء الجمعية للمدارس عبر ربوع الوطن، وتأسيس الصحف باللغة العربية، وغيرها من الوسائل التي اعتمدتها جمعية العلماء في سبيل الحفاظ على الهوية الجزائرية، وإبطال المشروع الإندماجي الفرنسي.

وفي هذا السياق يذكر عمر بن قدور، وهو واحد من رجال النخبة المحافظة التي دافعت عن اللغة العربية، مبينا النكران والجحود الممارس من بعض أفراد الطبقة المثقفة التي أنكرت فضل اللغة العربية فقال: "... فلها من غيرهم خصوم وأعداء يُنكرون فضائلها، ويغبنونها حقها فيقولون بصعوبة مناطقها وتعدد ألفاظها واستحالة الإلمام بجميعها...، وما ذلك إلا لأحد أمرين؛ إما جهلا وتجاهلا بتحقيقها، وتثبيطا للعزائم، وتكاسلا عن مزاولتها أو لغاية في نفس ودسيسة تُدس..." [57]. كما دعا أفراد هذه النخبة إلى التجنس، والدخول كلية في المجتمع الفرنسي، وتبني ثقافته وعاداته ولغته.

من جانب آخر عمل الإستعمار الفرنسي على محاولة فصل الجزائر عن انتمائها العربي خاصة منطقة القبائل التي كانت بمثابة حقل تجارب للإستعمار في محاولة منه لتأسيس الكتلة العربية المسلمة عن طريق استيعاب الأقلية البربرية أو على الأقل فصلها عن الأغلبية العربية[58]، بإظهار منطقة القبائل كيانا منفصلا عن الكتلة العربية، وعليه يتم ضمُّ المنطقة القبائلية بالكلية إلى فرنسا[59]؛ فأصبح معظم أفراد النخبة الإندماجية

يتنكرون لتاريخ بلادهم؛ حيث اعترفت صوت المستضعفين في عددها الأول بالسيادة الفرنسية "إن الأهالي الخاضعين والمحترمين للسلطة الفرنسية لا يطلبون إلا العيش في سلام، أما فيما يتعلق بالقومية الإسلامية فإنها لم توجد أبدا"[60]، وفي هذا بيان واضح على تشبع عناصر هذا التيار بتاريخ الحضارة الفرنسية التي غرست في عقولهم أمجاد وبطولات الفرنسيين، وحرّفت تاريخ بلدهم الجزائر، مؤكدة في ذات المعنى على انتماء منطقة القبائل إلى فرنسا، في محاولة منها لفصلها بالكلية عن محيطها العربي الإسلامي.

زيادة على هذا؛ نفى بعضهم دور العرب والأتراك في تغيير طابع منطقة القبائل، يقول لشاني: إن "العرب والأتراك لم ينجحوا مثل الرومان والفينيقيين في إحداث تغيير عميق على الطابع البربري لأن أهالي شمال إفريقيا هم البربر خاصة "، ونفى في ذات السياق حسني لحمق إنتماء منطقة القبائل إلى المشرق مؤكدا انتماءها إلى الغرب، وأنها قطعة من أوروبا"[61]. إضافة إلى نشره كتابا بعنوان "رسائل جزائرية"(lettres algériennes)، الذي كان بيانا بربريا لسرد مآثر الشعب البربري الذي أنجب يوغرطة وماسنيسا وسانت أوغسطين إذ كان يشعر بقربه من هذا الأخير أكثر من قربه من سيدي عقبة، كما اعترف أن مستقبل فرنسا في الجزائر يمثله العنصر البربري[62]، مما يبين لنا عمل الفرنسيين على طمس تاريخ المنطقة، بخاصة ما تعلق بتاريخ الفتوحات الإسلامية، وبداية انتشار الإسلام، حيث عمل الفاتحون العرب على نشره بين السكان.

وفي نفس الإتجاه ألف الأستاذ بجامعة الجزائر سعيد بوليفة كتابا بعنوان "جرجرة عبر التاريخ" (le Djurdjura à travers l'histoire)، بيّن فيه أن مستقبل المنطقة التي ينتمي إليها في غير الإطار الإسلامي العربي قائلا: "إن البربري في أيامنا هذه يستطيع أن يجعل من الحضارة الفرنسية مشعلا نحو الحق والعدالة"[63]. أما المحامي بلقاسم إبازيزين الملقب بـ"أوغستين" فقد نفى هو الآخر وجود ماضي تاريخي لمنطقة القبائل حيث قال: "إن رغبة الشبيبة القبائلية هو التفرنس الكامل، وإن القبائلي ليس له ماضي تاريخي ومخلفات ثقافية تخالف وتتعارض مع التاريخ الفرنسي؛ بل إن التاريخ الفرنسي سوف يجعل من القبائلي بطلا فرنسيا"[64].

في مقال لرابح زناتي بجريدة صوت المستضعفين موسوما بـ"أفكار جديدة "، دعا فيه إلى ضرورة التقارب بين الشعبين، والعيش ضمن المجتمع الفرنسي، و"إن الوقت تغير، وقد

جاء التعليم الفرنسي بثماره، لماذا هذا التجاهل لوجود بذور صالحة لفرنسيين مسلمين، تخرجوا من الجامعة الفرنسية، توّاقين لأجل العيش وفق الطريقة الفرنسية، لماذا تُوضع الحواجز أمام العرب والبربر في خطواتهم نحو فرنسا، وفي اتجاه توحيد القلوب، وكذا التآخي بين شعبين شاركا مع بعضهما في المعارك"، ثم يضيف مدافعا عن فرنسا بقوله: "لا يمكن معاتبة الأم الحنون فرنسا أمام مجموعة أعماها الحقد ومصالحها الشخصية الضيقة"[65].

وكتبت جريدة صوت المستضعفين تدعو إلى الإندماج في الأمة الفرنسية تقول: "إن الأوروبيين والأهالي لا بد أن يعيشوا جنبا إلى جنب، وأن يقيموا علاقات متواصلة للمحافظة على مصالحهم وعلى أمتهم، وبالتالي يجب عليهم تبادل التقدير والثقة"، وتضيف أيضا: "إن تقارب وانصهار الأجناس هو في رأينا من العوامل الأساسية للسلم والإزدهار في البلاد، نحن ندعو مواطنينا إلى العمل من أجل السلم الإجتماعي والتربية المدنية، وذلك طواعية وبمحض الإرادة"[66]، كما أكدت في مقال آخر موسوم بـ"من أجل الجبهة الفرنسية"، إلى ضرورة الوحدة بين المجتمعين الجزائري والفرنسي، وذلك لأن "تحريض السكان الأصليين يفقد الثقة، لنضع صفحة جديدة من الماضي...، ودعونا ندرك أن الإثارة غير صالحة للإتحاد المثمر، ولنعترف أيضا أن الفرنسيين في الجزائر من جميع الفئات مستعدون عموما لقبول إصلاحات مقبولة، دعونا نستفيد من هذه الثقة في التوفيق لإنشاء الجبهة الفرنسية الأهلية"[67]، كما دعا العربي طاهرات إلى تشكيل أمة تجمع الفرنسيين والجزائريين، "إن دمج الأعراق يسمح بتكوين أمة ستقيم فيها الأجيال الفرنسية المولودة في الجزائر مع جماهير الأهالي... بالثقافة الفرنسية روابط فكرية وشراكة مصالح جد قوية تفرض عليها حياة مشتركة"[68].

إن هذه المواقف والإعترافات الصادرة عن أفراد النخبة الليبرالية الذين دعوا إلى ضرورة الذوبان كلية في المجتمع الفرنسي، هي خير دليل على نجاح السياسة الفرنسية في تخريج فئة جزائرية متأثرة بثقافتها ومبادئ ثورتها، ومؤيدة لسياستها الرامية إلى إدماج الجزائريين، وسلخهم من هويتهم الضاربة في أعماق التاريخ عبر مختلف العصور؛ إلا أنه لا النخبة الليبرالية الإندماجية ولا الفرنسيين نجحوا في مسعاهم الرامي إلى إدماج الشعب

الجزائري داخل البوتقة الفرنسية، وهو ما برهن عليه الجزائريون الذين رفضوا التخلي عن هويتهم، والتفوا حول ثورتهم ضد الإستعمار الغاشم الذي أصبح لا يفهم إلا لغة السلاح.

5- مصير النخبة الليبرالية الإندماجية: رغم التطورات التي عرفتها الحركة الوطنية الجزائرية؛ بخاصة بعد فشل المؤتمر الإسلامي وسقوط الجبهة الشعبية الفرنسية، ورفض المشروع الإندماجي لبلوم فيوليت، وتأثيرات قيام الحرب العالمية الثانية على الشعب الجزائري عامة، وتيارات الحركة الوطنية بشكل خاص، من هزيمة فرنسا التي كانت لا تقهر، ونزول قوات الحلفاء، وانتشار ميثاق الأطلسي الداعي إلى تحرر الشعوب وتقرير مصيرها، إلا أن عناصر هذا التيار بقيت على توجهها وأفكارها الداعية إلى التجنس والاندماج التام في الأمة الفرنسية كحل للقضية الجزائرية، حتى لو تطلب الأمر التخلي عن مبادئ هويتها من دين ولغة وانتماء حضاري، وفي ذات السياق صرحت جريدة صوت الأهلي في إحدى مقالاتها بمناسبة المشروع الإصلاحي الذي طرحه ديغول في خطابه الذي ألقاه بقسنطينة: "المواطنة التي ستُمنح للجزائريين هي بمثابة شرف لا بد أن نحافظ عليه في كل وقت، بالأمس كان الأهالي في وضع أقل من الفرنسيين في المجال السياسي، وسيتساوون معهم؛ فهل سينسون بأن الفرنسيين كانوا أسيادهم، وأنه عليهم أن يسيروا في طريقهم من أجل تعلم المزيد"[69]. كما اعترف في هذا المقام رابح زناتي بفقدان فرنسا الأهالي الموالين لها نتيجة سياستها التي جعلتهم يشعرون بالمرارة والخيبة، ولكن دون فقدانهم للأمل[70] في أن يتم إدماجهم، معتبرة أن رفض سياسة الإندماج إنما يدل على التعصب والتخلف[71].

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، ومع التحولات التي عرفتها مختلف أطياف الحركة الوطنية بعد أحداث الثامن ماي 1945، فإن أنصار هذا التيار قد فشلوا في قيادة الشعب الجزائري، كما وجدوا أنفسهم في عزلة ودون قاعدة شعبية، مما جعل دورهم السياسي يتقلص، ولم يبق أمامهم سوى خيارين: إما الإنضمام إلى صفوف الحركة الوطنية الجزائرية أو الإختفاء[72] من الساحة السياسية، في ظل استحالة تحقيق ما كانوا يرمون إليه باكتسابهم للمواطنة الفرنسية، والتخلي عن هويتهم العربية الإسلامية.

زيادة على هذا فإن تطورات الحركة الوطنية بمختلف تياراتها الإستقلالي والإصلاحي، أدت في نهاية المطاف إلى منع منظري السياسة البربرية من الفرنسيين، ومن تأثر بهم من تحقيق ما كانوا يطمحون إليه، بعد أن عجزوا عن نشر أفكارهم بين سكان منطقة القبائل[73] الذين رفض سكانها تلك الدعوات الرامية إلى زرع التفرقة العنصرية بين سكان الوطن الواحد، وفصل المنطقة عن انتمائها إلى الأمة العربية الإسلامية.

كما أن تنازلاتهم وتأييدهم للفرنسيين، ورغبتهم في التخلي عن هويتهم الوطنية، لم تحقق من مطالبهم الاندماجية شيئا، حيث بقيت مجرد دعوات على صفحات جرائدهم، مما جعلهم يعيشون بعيدين عن تطلعات الشعب الجزائري، الذي رأى أن ما أُخذ منهم بالقوة لا يُسترجع إلا بالقوة، وهو ما أكده اندلاع الثورة التحريرية التي ساهمت في إحباط مخططات الفرنسيين في سياستهم الرامية إلى إدماج المجتمع الجزائري، وإخراجه من محيطه الحضاري الإسلامي خاصة منطقة القبائل. كما قضت على أحلام عناصر النخبة الإندماجية الذين كانوا يطمحون إلى إدماج الجزائر كلية في الأمة الفرنسية.

هكذا، أدت جهود كل من رجال الدين والزوايا واندلاع الثورة التحريرية إلى إفشال مشروع فرنسا الإستعماري القائم على محاولة فصل منطقة القبائل، وإدماجها في المجتمع الفرنسي. كما أدت تلك الجهود إلى تعميق الروح الإسلامية وانتشار اللغة العربية، وتلاحم أفراد المجتمع الجزائري قبائل وغير قبائل، ويدعم هذا ما استنتجه المؤرخ الفرنسي شارل روبير آجيرون عندما اعتبر أن سياسة فرنسا البربرية في الجزائر كان نهايتها الفشل، حيث أنها لم تعمل إلاّ على التقريب بين الجزائريين وتوحيدهم وتكاتفهم[74].

خاتمة : من خلال ما تطرقنا إليه سابقا يمكننا أن نخلص إلى النتائج التالية:

- إن تلك النخبة حملت إيديولوجية ومشروع سياسي يخدم مصالح الإستعمار الفرنسي في الجزائر، مقابل تجاهلهم مسألة الهوية الوطنية، وتنكرهم لأصالة الجزائريين ومقوماتهم، وهو ما يؤكد عزلتهم عن مجتمعهم الذي عارض أفكارهم، ولم يقتنع بها نظرا لكونها تتناقض مع قيم الإسلام والوطنية[75]، التي كان الإستعمار الفرنسي يسعى لهدم أسسها ومبادئها.

- بالرغم من دفاع عناصر هذا التيار عن القيم الإنسانية، وانتقادهم للنظام الإستعماري، إلا أنهم ظلوا فئة محدودة العدد، ليس لها أي تأثير على الرأي العام الجزائري، كما لم يستطيعوا ممارسة نوع من الضغط على الإستعمار، ورغم وطنيتهم المخلصة لفرنسا، وتمسكهم بالسيادة الفرنسية بالدعوة إلى التجنيس الشامل على الأقل للنخبة المثقفة نظرا لما يترتب عن التجنيس الفردي من مواقف محرجة أمام مجتمعهم الذي كان ينبذهم إلا أنهم فشلوا في تحقيق ذلك، ومع ذلك بقي هؤلاء يرددون شعارات الجزائر الفرنسية، وأن المسلمين الجزائريين فرنسيون، واعتبار من يعارض الإندماج شكلا من أشكال الجهل[76].

- إن نكران أغلب عناصر التيار الليبرالي الإندماجي لمبادئ هويته كان انعكاسا لسياسة المحتل الثقافية الرامية إلى إيجاد جيل منسلخ عن هويته ووطنيته الأصيلة، وداعيا إلى تبني الأفكار الغربية، والدخول كلية في المجتمع الفرنسي.

- رغم مواقف النخبة الليبرالية الإندماجية المؤيدة للإستعمار،إلا أنها ساهمت في فضح السياسة القمعية للإستعمار القائمة على التمييز الديني والعرقي بين الأغلبية المسلمة والأقلية الفرنسية (المستوطنون).

- لم تكن كل عناصر النخبة الليبرالية رغم الثقافة المشتركة (ثقافة فرنسية) ذات نظرة واحدة اتجاه الهوية الوطنية، وإنما كان هناك من دافع عنها رغم تأثره بالفكر الليبرالي ودعوته للإندماج في المجتمع الفرنسي.

- رغم الدعوة الصريحة للنخبة الليبرالية الإندماجية إلى الذوبان في المجتمع الفرنسي، ونكران أصالتهم إلا أن دعوتها باءت بالفشل، ولم تحقق مطامحها الرامية إلى إلغاء هويتها واسبدالها بهوية جديدة.

- فشل فرنسا في طمس ثوابت هوية الشعب الجزائري عائد بالدرجة الأولى إلى تمسك الجزائريين بهويتهم، والذود عنها بكل الوسائل والطرق التي أدت في الأخير إلى اندلاع الكفاح المسلح، وطرد المحتل من أرضه.

- لقد آل مشروع أنصار التيار الداعي إلى الإندماج التام داخل الأمة الفرنسية إلى الفشل والزوال، وذلك نظرا لابتعادهم عن تطلعات مجتمعهم الذي دافع ودون هوادة عن هويته التي حاربها الإستعمار الفرنسي بشتّى الوسائل لأجل القضاء عليها، كما أن توجه الجزائريين إلى الكفاح المسلح قضى على أحلام الفرنسيين والجزائريين على حد سواء ممن كان يدعون إلى الإندماج كحل للقضية الجزائرية، وفصل الجزائر عن إطارها العربي الإسلامي.

الهوامش:

1- حسن رمعون، الإستعمار، الحركة الوطنية والإستقلال بالجزائر : العلاقة بين الديني والسياسي، ترجمة : محمد داود، مجلة إنسانيات، 2006/31، ص12.----2- ريسلير كيميل، السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر أهدافها وحدودها(1830-1962)، تر : نذير الطيار، ط1، دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني، 2016، ص234.----3- صافر فتيحة، مواقف النخبة الجزائرية من سياسة فرنسا الإندماجية، مجلة عصور الجديدة، كلية العلوم السلامية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران1، العدد 16-17، 2014- 2015، ص 333.----4- نفسه، ص333.

5- الإبراهيمي أحمد طالب، من تصفية الإستعمار إلى الثورة الثقافية 1962-1972، ترجمة حنفي بن عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 16.----6- هلال عمار، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830-1962، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 112.----7- مربوش أحمد، الحركة الطلابية الجزائرية ودورها في الحركة الوطنية وثورة التحرير 1954، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2005/ 2006، ص14.---- 8- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ج3، ص415.----

9- مربوش أحمد، المرجع السابق، ص32.----10- عبد العزيز شهبي، الزوايا والطرق الصوفية والعزابة والإحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص39-40.----11 - تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ط5، وزارة المجاهدين،الجزائر، 2001، ص366-367.----12 - المدني أحمد توفيق، كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر، دط، 1931، ص106.----13 - داهش محمد علي، المغرب العربي المعاصر، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2014، ص23.----14 - عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ط01،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1997، ص215.----15 - عبد الرحمن بن ابراهيم العقون، الكفاح القومي و السياسي من خلال مذكرات معاصر 1920-1936، ج 01، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص328- 329 .

16- صافر فتيحة، حركة الشبان الجزائريين 1900-1930، أطروحة دكتوراه في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، 2015/2016، ص41.----17- زوزو عبد الحميد، الهجرة و دورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1919- 1939، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص16.----18- صافر فتيحة، المرجع السابق، ص41.----19- أجيرون شارل روبير، تاريخ الجزائر المعاصرة من

انتفاضة 1871 إلى اندلاع حرب التحرير 1954،ترجمة : محمد حمداوي وابراهيم صحراوي، مج 2، دار الأمة، الجزائر، 2013، ج2، ص514.----20- نفسه، ص392.----21 - مراد علي، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925 إلى 1940، ترجمة : محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 488.---
-22- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900- 1930، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1992، ج2، ص 352.

23 - Gilbert Meynier , l'Algerie et les algériens sous le système coloniale , approche historico historiographique , insaniat , n 65-66 , juillet , décembre , 2014 , p. 51.

24- لونيسي رابح، المرجع السابق، ص 48.

25 - Léon Antoine , Colonisation , Enseignement et éducation , éditions l'harmattan , paris , 1991, p 192.

26- قداش محفوظ، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1919-1939، دار الأمة، الجزائر،2011، ج01، ص 106.

27- Fanny Colonna , Instituteurs Algériens 1883-1939 , paris , presses de la fondation nationale des sciences politiques,1975, p.190.

28- أجيرون شارل روبير، المرجع السابق، ص 512.----29- دويدة نفيسة، المسألة الثقافية في الجزائر من منظور التيار الليبرالي للحركة الوطنية 1927-1945، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر،2010/2009، ص113- 114.----30- نفسه، ص126. الهامش رقم 2.----31- بن حسين كريمة، المتجنسون مواقفهم، أفكارهم وطموحاتهم، مجلة العلوم الإنسانية، العدد30، المجلد أ، ديسمبر 2008، ص 129.----32- نفسه، ص130.----33 - بن نبي مالك، إنتاج المستشرقين و أثره في الفكر الإسلامي الحديث، ط1، دار الإرشاد للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، 1969، ص10.----34 - بن حسين كريمة، المرجع السابق، ص130.----35- نفسه، ص140.----36- بوعبد الله عبد الحفيظ، فرحات عباس بين الإدماج والوطنية 1919- 1962،مذكرة ماجستر في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2006/2005، ص 52.----37 - جوليان شارل أندري، إفريقيا الشمالية تسير القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية،تر : المنجي سليم و آخرون، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976، ص53.----38 - مرّاد علي، المرجع السابق، ص496.----39 - لونيسي رابح، محاضرات وأبحاث في تاريخ الجزائر، كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011، ص94.

40 - Pervillé Gey , les étudiants algériens de l'université française 1880 -1962 , préface de mohamed harbi , casbah editions , alger , 1997 , p214.

41- برفيلي غي، المرجع السابق، ص 406.

42 - La Voix Indigène , 28 octobre 1936 , n386 .

43- بورغدة رمضان، قضية تجنيس الأهالي المسلمين في الجزائر المستعمرة، 1865-1962 (الأبعاد والتداعيات)، سلسلة منشورات مخبر الدراسات والبحث في الثورة الجزائرية، جامعة محمد بوضياف المسيلة، الجزائر، السداسي الأول 2018، ص145.---- 44 - بن حسين كريمة، المرجع السابق، ص137.----45- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1930- 1945، ج3، ص61.

46 - Pervillé Gey , Op.Cit , p. 215.

47- عمري الطاهر، النخبة الجزائرية وقضايا عصرها من بداية القرن العشرين إلى ما بين الحربين،الدار الوطنية للكتاب، الجزائر،2009، ص 258.----
48 - نفسه، ص262.----49 - عباس محمد الصغير، فرحات عباس من الجزائر الفرنسية إلى الجزائر الجزائرية 1927-1963، مذكرة ماجستر في تاريخ الحركة الوطنية كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2007/2006، ص34.----50 - بن حسين كريمة، المرجع السابق، ص ص 134- 135.---- 51 - نفسه، ص134- 135.

52 - Ali merad , le réformiste musulman en algérie de 1925 à 1940 , ed. la haye mouton , paris , 1967 , p 409.

53 - Kaddache Mahfoud , Histoir du nationalisme algérien 1919 -1939 , tome 01 , éditions edif , alger , 2000 , p . 77.

54 - صافر فتيحة، المرجع السابق، ص 105. نقلا عن : La Voix des humbles , n42 , 1926 ----55 - المدني أحمد توفيق، المرجع السابق، ص 352.----56 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج3، ص339.----57 - مجاهد يمينة، مشروع الدولة والأمة في أدبيات الحركة الوطنية الجزائرية 1946-1954، مذكرة ماجستر في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية،جامعة وهران،السانيا، 2007/2006، ص27 . نقلا عن : جريدة المصباح، العدد18، 30/ 09/ 1940.

58 - Perveille Gey , Op.Cit , p. 214.

59- بن حسين كريمة، المرجع السابق، ص 138.----60- قداش محفوظ، المرجع السابق، ص106.----61- عمري الطاهر، المرجع السابق، ص 251.----62- أجيرون شارل روبير، المرجع السابق، ص 550.----63- عمري الطاهر، المرجع السابق، ص 250.

64 - Perville Gey ,op,cit ,p:214.-----65 - la voix des humbles , n 55 , decembre 1927 , p 4.

66- يحياوي مرابط مسعودة،المجتمع المسلم والجماعات الأوربية في جزائر القرن العشرين، المجلد الأول،ترجمة : محمد المعراجي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص229- 230.

67 - la voix indigène , n 386 , 28octobre 1936 .

68- قداش محفوظ، المرجع السابق، ص271.----69 - بن حسين كريمة، المرجع السابق، ص 141.

70 - la voix des indigène , n 571 , 10 janvier 1944. P01.62

71- صافر فتيحة، موافق النخبة الجزائرية، ص338.----72- بن حسين كريمة، المرجع السابق، ص135.----73- ناصر الدين سعيدوني، المسألة البربرية في الجزائر دراسة للحدود الإثنية للمسألة المغاربية، عالم الفكر، العدد الرابع، أفريل- يوليو 2001،الكويت، ص161.----74- نفسه، ص160.----75- بن حسين كريمة،المرجع السابق، ص141.----76 - نفسه، ص141.